شعر القرن التاسع عشر

بين التجديد والتقليد

للاستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

عهد زاخر بالأحداث ، وأيام تمتلئ بالأعاجيب ، وشئون يجرفها الزمن فيدركها الذبول ، وأخرى تشرق فى صفحة الحياة فيقبل عليها الناس ، وصراع عنيف بين القديم والحديث لا يلبث أن ينتصر فيه ثانيهما بعد شىء من التهذيب . وعناء يحسه من عاشوا فى ظل الماضى قانعين بما فيه من خير أو شر ، ونشاط المجددين يحاولون به دفع الناس إلى الأمام ليدركوا قافلة الزمان

هذا هو حال الشرق خلال القرن التاسع عشر ، بعد أن وصلته الأحداث بالغرب ودفعته فى تياره ، على فرق ما بينهما فى العادات والأخلاق والعلوم ، والتجارب والسياسة وظروف الحياة

ونحن نكلف الأشياء ضد طباعها ، إذا تطلبنا من الشرق أن يقف موقف الجمود ، والحياة من حوله صاخبة تأتى بكل عجيب ، كما لا نحسن الحكم إذا رجونا منه الإسراف فى التغير والانقلاب ، فالعادات والتقاليد والقديم المألوف فى شتى صوره ومظاهره ، أمور محببة إلى النفس وصور عالقة بالفؤاد ، لا يهجرها الانسان إلا مرغما أو مقتنعا وكثيراً ما يغلق عقله دون الإقتناع ، وإن وضح الدليل وسطع البرهان .

ولا نود أن نشق عليك — أيها القارىء الكريم — فنعرض هذا السفر الحافل بموضوعات التغير فى التقاليد والدين والسياسة والاجتماع ، ولكننا نلم بها فى عجالة علها تفيد فى شرح ما نحن بصدده من التغير الذى طرأ على الشعر خلال هذا القرن .

أرأيت إلى الشرق وكيف وقف عند تقاليده وحافظ على عاداته قرونا عدة ، لا يحاول أن يريم عنها أو يرجو بها بديلا ؟ فلما تهيأ له أن يتصل بالغرب ، ورأى ما رأى من عادات القوم وأساليبهم وقف المتحرجون المتزمتون فى سبيل هذه العادات والتقاليد ، وهتف بضرورتها المجددون ، والتقى الفريقان فى صراع عنيف دام عهداً طويلا ، ورأينا كتبا تؤيد وأخرى تندد ، بل ما زال أثر هذا الصراع قائما إلى الآن ونرى أثره فى ظهور المرأة على مسرح الحياة ومحاولتها الوثوب إلى كثير من الحقوق .

فإذا انتقلنا إلى ميدان العلم ، وجدنا صراعا مثل هذا الصراع — بين القانعين بعلوم الأزهر وتراث الأجيال السابقة ، والمتطلعين إلى الغرب وعلوم المادية التى فتنت قلوبهم ، وهزت نفوسهم ، وينتهى أمر هذا الاختلاف إلى مدارس دينية وأخرى مدنية ، ولا تزال قائمة إلى رقتنا هذا .

والدين نفسه لم يسلم من آثار هذا العهد ، فقد نادى المنادون بضرورة التجديد ، واستمسك القدامى بمبادئهم ، فظهر على مسرح الحياة رجل الاصلاح جمال الدين ينادى بمبادئه التى تجعل الدين صالحا لكل زمان ومكان . خشية أن يتقول المتقولون : إنه قد مضت أيامه وانتهى برهانه وقد حدث مثل هذا فى السياسة — والحضارة وقد نجد تصويره فيما كتب على مبارك ومحمد المويلحى .

وخليق بنا أن نذكر أن الوعى الاجتماعى والقومى قد بدت مظاهره واضحة جلية فى النصف الثانى من هذا القرن فقد شعر الناس بمطالب المجتمع وأدركوا واجباته فهبوا يصلحون من أمره ، ويقومون من معوجه : فها هى ذى الأندية العلمية والأدبية ، وها هى ذى جماعات الطباعة تلبى مآرب الناس بإبراز التراث العربى القديم ونشر العلم الحديث ، وها هى ذى الشعوب تنادى باشتراكها فى الحكم وإدارة البلاد ، حتى لقد تحقق لهم بعض ما أرادوا فى فترات من الزمان على يد « مدحت باشا » فى الشام والعراق ، وعلى يد « اسماعيل باشا » فى مصر .

والأدب فى جميع أحواله مرآة تعكس الأحداث ، وصحيفة تسجل مواكب الحياة ، إذا منح أهله الصدق فيما يقولون ، ويسرت لهم المطالب التى تهيىء لهم القدرة على التصوير والتسجيل ، بل هو خفقات النفس وخلجات الفؤاد ومشاعر المجتمع وآماله يذيع بها الموهوبون وينطق بها الأدباء المحسنون .

فهل — يا ترى — تضطرب الحياة ولا يضطرب ؟ وتسير الأمور ويجمد ؟ إن من يستقصى الأحداث فى أعصار الزمن ويتتبع حياة الأدب فى هذه الأحداث، يجد ارتباطا وثيقا بينهما . وهكذا وجدنا أحوال الناس فى القرن التاسع عشر تنعكس على مرآة الأدب فيبدو فيه التقليد والتجديد ، والجمود والتوثب ؛ حتى هيىء له آخر الأمر أن يثب وثبته المعروفة ، فلم ينته هذا القرن إلا وهو فى ثوب جديد يختلف عن ثوبه القديم كل الاختلاف .

وقد مر على الشعراء قبل القرن التاسع عشر قرون أصيبوا فيها بتبلد الذهن وجدب العاطفة ، ونضوب القرائح لأمور كثيرة يرجع بعضها إلى تضاؤل الشخصية وكم الحرية وانحسار العلم واستبداد السلطان وكساد الأدب وغلبة الأعاجم ، فصار الشعر بعامة لا يصور أمل النفس وحياة الجماعة ولا ينتشى لمظاهر الجمال ولا يهتف بالعاطفة الصادقة والإحساس الدقيق . وقد ظل الشعراء أمداً طويلا فى دائرة ضيقة من التقليد الضعيف لضعفاء الشعراء الذين سبقوهم ، وانتقل الشعر إلى ضرب من العبث ، لا يثير عاطفة ولا ينبه إحساسا ، وصار إلى رياضة لفظية كثرت زيفها وفسد طبعها ، فأصبح جسدا بلا روح وكلاما خاليا من المعانى إلا فى القليل الذى يجود به الزمن فى أقصى أيامه وأشق أحواله .

ولكى يتسنى لنا تمييز شعر التقليد من شعر العاطفة ، يجب أن نوضح الشعر بمعناه الصحيح كما ترتضيه ويرتضيه نقدة الكلام فهو تصوير لعاطفة حساسة ، ووحى لوجدان مرهف ، وحديث قلب خفاق يدرك من دقائق الأشياء مالا يدرك غيره من القلوب ، وإبراز لهذه الأحاسيس فى صور من اللفظ والخيال البد يعين ، حتى ليخيل إليك وأنت تسمعه أن نفس الشاعر تسيل فى ألفاظه ، وتتدفق فى بيانه فلا تلبث أن تؤاخى هذه النفس ، بل لا تلبث أن تسيل معها فى هذه النفحات ، وتصبح وترا من الأوتار يردد هذه الأحاسيس ، فتتجاوب نفسك ونفس الشاعر ، وتحلقان معا فى جو من الخيال البديع : تعيشان تارة بين الخمائل النضر والرياض الأريضة ، تبتهجان للحياة وتريان فيها المسرة والإيناس ، وقد يجذبك إلى جو من التشاؤم والضيق بالناس ، فتضيق ، وتتمنى أن لو عشت فريدا وحيدا .

هذا هو الشعر كما يجب أن يكون ، فإذا بعد عن هذا الأفق ونزل عن هذه المكانة ، كان تكلفا وتقليدا لا غناء فيه ، واستبان الناظر فيه فساد السليقة وفتور العاطفة . ونحن نعرض هنا مثلا من شعر التقليد فى القرن التاسع عشر ، وستدرك فيها انحدارا عن المستوى الرفيع وتجافيا المنهج المستقيم .

طلب أحدهم من الشيخ شهاب الدين أن يكتب له أبياتا لينقشها على مائدة الطعام ، فقال أبياتا منها :

أيها السيد الكريم تكرم ... وتناول ما شئت أكلا شهيا
وتفضل بجبر خاطر من هم ... أتقنوا صنعه وخذ منه شيا

ويبدو أن يأتى هذا الكلام (ولا أسميه شعرا) فارا باردا لا يحمل خيالا كريما ، ولا معنى لطيفا ، إذ لم يتجاوز القلم واللسان إلى ما وراءهما من العاطفة والشعور ، ولا يزيد قائلهما إحساسا بهما عن إحساس الكتبة الذين يقتعدون منافذ المحاكم ، ومكاتب البريد : إنما هى كلمات مرصوصة ، وصور باهتة محفوظة ، تحبر فى الورق بريشة جف دهانها وحركتها يد مسخرة مأجورة ، فجاءت لا تحمل من شخصية الفنان قليلا ولا كثيرا .

وأطرف من هذا قصة شاعر آخر هو عبد الجليل البصرى المتوفى سنة ١٨٤٤ فقد طلب منه أحد الشحاذين أبياتا يتكفف بها الناس ، وينال بإنشادها إحسانهم فكتب له :

يا ماجدا سادعن فضل وعن كرم ... وهمة بلغت هام السماك علا
يامن إذا قصد الراجى مكارمه ... نال الأمانى وبراً وافرا عجلا
إنا قصدناك والآمال واثقة ... بأن جودك يغنى فقر من نزلا
جئنا ظماء وحسن الظن أوردنا ... إلى معاليك لا نبغى بها بدلا
لقد أضر بنا جور العداة وما ... أودى بنا الدهر يا بؤس الذى فعلا
عسر وغربة دار ثم مسكنة ... وذلة وفراق قائل وبلا

إلى آخر ما قال فى ذلك .

ولست أرى فى هذه الأبيات إلا ما يثير العجب ، ويدعو إلى الاشفاق على الشاعر الذى أضاع وقته فيما لا يجدى ولا يفيد . وإنه ليخيل إلى أن الشاعر حينما أراد أن ينظمها كان يضع كلمة بجانب كلمة ، ويقصيد الكلمات الأخرى ليتم الوزن ، ولعلنا نحس هذا فى الشطر الثانى من كل بيت .

والشاعر لا يجيد ، ولا يتيسر له أن يجيد ، إذا حمل على الشعر حملا ، وطلب إليه أن يقول فى غرض لم تهتف به نفسه ، ولم تستجب له عواطفه ؛ وإنما يحسن ويصيب إذا انطلق على سجيته ولبى رغبة نفسه فيكون مثله عندئذ مثل الطائر يغرد إذا شاء ويتوقف إذا أراد ، أو كالزهرة تعبق إذا ما اجتمعت فيها عناصر الشذا وتفتحت منها الأكمام .

هذا وقد طغى على هذا العصر لون من الشعر شغل الناس [illegible] هذا القرن قرن المديح . نعم ، إن هذا الغرض كان قد فتن الناس به منذ العصر العباسى الثانى ولكنهم تركوه إلا قليلا فى عهد المماليك والعثمانيين ، يوم كسدت سوقه وبارت بضاعته . ثم عادوا فهدوه مرة أخرى فى العصر الحديث للوصول إلى المال وأسفوا فيه حتى أزجوه لمن يستحق ومن لا يستحق ومن الحديث المعاد أن نذكر أن فى شعر المديح إلا قليلا تكلفا ورياء يبعدان به عن منهاج الشعر ، فاذا انضم إلى هذا ضآلة فى الثقافة وضعف فى اللغة جاء ضعيفا هزيلا . ومن الخير أن نسوق هنا كلاما ترجمه المنفلوطى فى رواية الشاعر يتبين منه القارىء ، كيف يعرض الشاعر المطبوع عن المدح ، وكيف يقبل عليه بغير قليه فلا يوفق فيه : « أتريد أن أحمل نفسى على عاتقى كما يحمل الدلال سلعته ، وأدور بها فى الأسواق مناديا عليها . من منكم أيها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء ، وأصحاب الجاه والسلطان يبتاع نفسا بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء . أتريد أن تستحيل قامتى إلى قوس من كثرة الانحناء ، وأن تهدل أجفانى من كثرة الإطراق والإغضاء ، وأن تجتمع فوق ركبتى طبقة سميكة من كثرة السجود والجثو بين أيدى العظماء أتريد أن يكون لى لسانان لسان كاذب أمدح به ذلك الذى صنعنى واجتبانى ، ولسان أعدد عيوبه وسيئاته ، وأن يكون لى وجهان : وجه واض عنه لأنه يذود عنى ويحمينى ، ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدنى ويسترقنى؟ ذلك مالا يكون »

إذا علمت هذا فاقرأ معى مديحا لعبد الرحمن الزيلعى لتدرك فيه مقدار التكلف فى اللفظ والمعنى على السواء :

بلغت مقاما لم تنله الأوائل ... وحزت كما لا يبتغيه الأفاضل
ولست براء غير فضلك يرتجى ... لكل ملم فيه تدمى الصياقل
ولولاك لم تدر العلوم بأنها ... تجل وأن قد بان منك دلائل
يطول لسان الفخر فى فضلك الذى ... بنيت له ركنا ليرجع ثاكل

وليس فى هذا الكلام شىء إلا أنه كلام ، لا يحمل من المعانى إلا ما يقع للعامة ولا من الخيال والألفاظ إلا ما يضحك كما فى قوله « يطول لسان الفخر . وأقبح من هذا خيال الشاعر عبد الحميد الموصلى يمدح ناصيف اليازجى :

كبش الكتائب والكتاب وإنه ... بالنحو ينطح هامة ابن خروف
متوقد الأفكار يوشك فى الدجى ... يبدو له المستور كالمكشوف
فطن تمنطق بالفصاحة وارتدى ... جلباب علم النحو والتصريف

وهذه الأخيلة من مثل قوله «بالنحو ينطح هامة ابن خروف» « وارتدى جلباب علم النحو » وإن كانت تؤدى معانى إلا أنها عارية عن الذوق ، خالية من مراعاة المقام .

للكلام بقية

أحمد أبو بكر ابراهيم

وزارة الحربية والبحرية

ترجو تقديم عطاءات بديوان الوزارة لغاية الساعة ١٢ ظهر الأيام الموضحة بعد عن توريد الأصناف المبينة قرينها

١) ٣٠ مايو سنة ٩٥٠ عن توريد البلح الأبرنى للجيش وبحرية جلالة الملك عام ٩٥٠/٩٥١

٢) ٣١ مايو سنة ٩٥٠ عن توريد المدريس اللازم للجيش والمصالح الأميرية عام ٩٥٠/٩٥١

٣) ٥ يونيه سنة ٩٥٠ عن توريد الأدوية اللازمة لإدارة الخدمات الطبية عام ٩٥٠/٩٥١

وتطلب الشروط على ورقة دمغة فئة ثلاثين مليما من إدارة العقود والمشتريات بالوزارة مقابل ٢٥٠ مليما لكل مناقصة وأجرة البريد أربعون مليما .

٤٨٩٠